التكافل الاجتماعي عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

الحمد لله ولي المتقين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد فخر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه واحة واستراحة غنّاء، مليئة بالخير والنماء، وبالرياحين الخضراء، التي يتفيأ بها المشتاقون إلى لحظات الصفاء، وكيف لا تكون كذلك وصاحبها منهل ونبع لأهل الأرض، ونجم وضّاء لأهل السماء، قد سقى أمة الإسلام بالعلم والنقاء، إنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أحب أن يُرى الحق والإباء في المسلمين، منذ أن أعلنها لله رب العالمين، وسننظر في نظرَاته البعيدة في التكافل والتعاضد لهذه الأمة، وليس لأبنائها فحسب بل لكل من استظل في كنفها سواء كانت شيمته الإيمان والهداية أو حتى الظُلمة والضلالة، رجاء قربٍ من الله وجَنّة، وبعدٍ عن النار وجُنّة. وسيكون موقفنا لهذه الواحة في الصور الثلاثة الآتية:

الصورة الأولى (رعاية العجائز والمسنين):

ويروي هذه الصورة أبو صالح الغفاري : أن عمر بن الخطاب (كان يتعهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل فيسقي لها و يقوم بأمرها فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها فرصده عمر فإذا هو بأبي بكر الذي يأتيها . و هو يومئذ خليفة . فقال عمر : أنت هو لعمري) .

فهذا مثال يبين كيفية رعاية القوي للضعيف خاصة إذا كان ممن لا يقوى على حاجاته بنفسه، ويظهر لنا من هذا الموقف ما كان يحث من تنافس بين الصحابة رضي الله عنهم في التسابق إلى أجر التعاون والتعاضد، ويظهر لعمر أن المنافس له كان صدّيق الأمة الذي لم يستطع عمر بن الخطاب أن يسبقه في مواقف سالفة زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدث يوم تجهيز جيش المسلمين لغزوة تبوك.

كما تظهر تلك الرعاية والعناية كيفية سبق قادة أمة الإسلام إلى نظام التكافل الاجتماعي بأزمنة طويلة حيث لم تعرف أمريكا قانون الضمان الاجتماعي إلا في عام ١٩٣٥م وذلك عندما أصدر المشرّع الأميركي قانون الضمان الاجتماعي.

كما يذكرنا هذا الموقف العظيم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) .

فهذا منهج أمة الإسلام، في العناية والرعاية للكبار توقير واحترام، وليس من التوقير أن يُترك كبار السن دون رعاية وعطف من أبناء الأمة، وليس من منهج الإسلام حرمان الأطفال من الرحمة والإحسان أيضاً وهذا ما تحدثنا عنه الصورة الثانية.

الصورة الثانية (حماية ورعاية الطفولة):

ومن الصور البديعة في التكافل الاجتماعي الشخصي من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع مجتمع البنيان المرصوص ما رواه زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب طاف ليلة، فإذا هو بامرأة في جوف دار لها وحولها صبيان يبكون، وإذا قدر على النار قد ملأتها ماء، فدنا عمر بن الخطاب من الباب، فقال: يا أمة الله، أيش بكاء هؤلاء الصبيان؟ فقالت: بكاؤهم من الجوع. قال: فما هذه القدر التي على النار؟ فقالت: قد جعلت فيها ماء أعللهم بها حتى يناموا، أوهمهم أن فيها شيئاً من دقيق وسمن. فجلس عمر فبكى، ثم جاء إلى دار الصدقة فأخذ غرارة، وجعل فيها شيئاً من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودراهم، حتى ملأ الغُرارة، ثم قال: يا أسلم، احمل عليّ. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك! فقال لي: لا أم لك يا أسلم، أنا أحمله لأني أنا المسؤول عنهم في الآخرة - قال: فحمله على عنقه، حتى أتى به منزل المرأة - قال: وأخذ القدر، فجعل فيها شيئاً من دقيق وشيئاً من شحم وتمر، وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر - قال أسلم: وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته، حتى طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا، ثم خرج وربض بحذائهم كأنه سبع، وخفت منه أن أكلمه، فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، أتدري لم ربضت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين! قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي .

ما هذه الصورة العظيمة لأمير المؤمنين!!

وأي إحساس دقيق وحقيق!

يخرج ليلاً كعادته لتفقد أمور الأمة بحكم مسؤوليته عنها ويجد هذا الموقف الذي فاجأه.

أطفال من رعية عمر جائعون ويبكون!!

فيجلس عمر – وهو أشد هذه الأمة في الله– ويبكي معهم. ثم انتهت لحظات العاطفة وانطلق عمر إلى الإغاثة الفورية بحكم المسؤولية، إلى مؤسسة الصدقات التي هي أحد أفرع بيت مال المسلمين.

ويأخذ عمر الطعام واللباس والنقود، ثم يسارع بنفسه، ويطهي بنفسه، ويغرف بيديه، ثم ينتظر أن يرى البسمة ترتسم على محيّا أولئك الصبية، ويسمع الضحكة البريئة تخرق سكون ذلك الليل الذي أخفى هؤلاء الجائعين.

هذا هو عمر مع الطفولة بل وأكثر من ذلك حيث عزل مرة أحد عمّاله مع حرمانه من الوظيفة العامة بشكل نهائي، وذلك لما اعترف له أنه ما قبّل ولداً قط، ويروي ذلك البيهقي عن أبي عثمان النهدي قال: استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده. قال فأتى عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقبله، قال: أتقبّل هذا ما قبلت ولداً قط. فقال عمر فأنت بالناس أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً . وهذا ما يذكرنا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وعنده الأَقْرَعُ بْنُ حَابِس التميمي جالساً فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَداً، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: (مَنْ لا يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ) .

ولم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينتظر أن يرى بين أطفال رعيته الضعيف والهزيل بل كان يقوم بتأمين الرعاية للأطفال منذ ولادتهم لأن (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير) ،حيث يفرض لهم من بيت مال المسلمين مئة درهم وذلك كما يرويه ابن سعد في طبقاته أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفرض للمنفوس– الوليد– مائة درهم فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم فإذا بلغ زاده .

ولم يكن ذلك لأولئك فحسب بل شملت رعايته كل الأطفال فكان إذا أتي باللقيط فرض له مائة درهم، وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر ما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيراً ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال .

الصورة الثالثة (المحافظة على ماء الوجه لكل المواطنين):

وبها تعامل عمر بن الخطاب مع المحتاجين من مواطني الدولة الإسلامية ولو كانوا غير مسلمين فحقوقهم في العدالة الاجتماعية محفوظة ومصونة ما دامت أنفسهم على الوفاء والعهد مستقيمة.

حيث روى الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنفية بسنده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل – شيخ كبير ضرير البصر– فضرب عضده من خلفه وقال:

- من أي أهل الكتاب أنت ؟
- فقال يهودي.
- قال فما ألجأك إلى ما أرى ؟
- قال: أسأل الجزية والحاجة والسن.

قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: أنظر هذا وضربائه، فو الله ما أنصفناه إن نأكل شبيبته ثم نخذله عند الهرم: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. إنها الرعاية لكبار السن أياً كان اعتقادهم فهم في مسؤولية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

وكذلك فعل عندما مرّ في الشام بقوم مجذومين حيث أمر أن يُعطوا من القوت بانتظام ، فالدولة الإسلامية لا ترضى بظاهرة التسول، وعليها علاج تلك الظاهرة وكفاية مواطنيها، وضمان عزتهم .

وهذه الأفعال تدل على عدالة الإسلام وحرص الفاروق أن تقوم دولته على العدالة والرفق برعاياها ولو كانوا من غير المسلمين.

وقد بقيت الحرية الدينية معلماً بارزاً في عصر الخلافة الراشدة، مكفولة من قبل الدولة، ومصانه بأحكام التشريع الرباني.

المراجع:

١. أبو صالح الغفاري اسمه سعيد بن عبد الرحمن المصري وهو تابعي ثقة. معرفة الثقات للعجلي جـ٢ ص٤٠٩. كما ذكره ابن حبات في الثقات جـ٤ ص٢٨٧.
٢. تاريخ الخلفاء ص٧٤ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي مطبعة السعادة – مصر الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م
٣. التكافل والضمان الاجتماعي في الإسلام سعد عبد السلام حبيب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، العدد الثاني والثلاثون ١٩٦٣.
٤. أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس وهو حديث صحيح لغيره كما ذُكر في تعليقات شعيب الأرناؤوط.
٥. بمعنى جلس.
٦. أسد الغابة، كذا تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٤٤ ص٣٥٣.
٧. التابعي الكبير: عبد الرحمن بن مل أبو عثمان النهدي أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، توفي وهو ابن أربعين ومائة سنة إحدى وثمانين، وقيل: سنة مائة بالبصرة، سلم إلى سعاة النبي صلى الله عليه وسلم صدقة ثلاث سنين وهو مسلم، ثم قدم المدينة في أيام عمر بن الخطاب، كان كثير العبادة، حسن القراءة لزم سلمان الفارسي فصحبه اثني عشر سنة. عن معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني جـ٤ ص١٨٦٩، دار الوطن للنشر – الرياض، ط: ١/ ١٤١٩هـ
٨. سنن البيهقي جـ٩ ص٤١ مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤.
٩. أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، جـ٥ ص٢٢٣٥.
١٠. من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب فِي الأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالاِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، جـ٨ص٥٦.
١١. الطبقات الكبرى جـ ٣ص٢٩٨، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري دار صادر – بيروت ط: ١ – ١٩٦٨ م.
١٢. الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ ص٢٩٨.
١٣. وذلك في كتابه الشهير (الخراج) ص١٥٠.
١٤. أعطاه. الرَّضْخُ العطية القليلة.
١٥. مجذومين: الجَذْم القَطْع جَذَمه يَجْذِمه جَذْماً قطَعه فهو جذِيم وجَذَّمه فانْجَذم وتَجَذَّم، والجَذْمُ: سرعة القَطْع، ومنه يقال (جُذِمَ) الإنسان إذا أصابه (الجُذَامُ) لأنه يقطع اللحم ويسقطه. لسان العرب جـ١٢ ص٨٦ المصباح المنير جـ ١ ص٦٤.
١٦. العهدة العمرية: ص١٨، للدكتور شوقي أبو خليل، اتحاد الناشرين السوريين ط٣ ٢٠٠٩.
١٧. السياسات المالية عند الخلفاء الراشدين عامر محمد نزار جلعوط، دار إحياء للنشر الرقمي، ٢٠١٣م.